﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصّدقُ والعدلُ والثّباتُ دليلُ تفصيلِ الكتابِ

لمَّا بيَّن في قولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ إنزالَ الكتابِ مُفصَّلًا، حسُن أن يَذكرَ تمامَ كلمةِ اللّه صدقًا وعدلًا، "فأخبر أنّه لا رادَّ لأمرِه ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، تَصريحًا بما أفهَمَ مَطلعُ الآية منَ التَّمَام، وأظهَرَ موضِعَ الإضمارِ تَعميمًا وتبرُّكًا وتلذيذًا، فقال: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾؛ أي: من حيثُ إنَّهَا كلماتُهُ مُطلقًا من غيرِ تخصيصٍ بنوعٍ ما، بل كُلُّ ما أخبرَتْ به فهُو كائنٌ لا محالةَ، رَضِيَ مَن رضِيَ وسَخِطَ مَن سَخِط"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَمَّتۡ﴾: تمَّ الشّيءُ تمامًا، وقمرٌ تَمامٌ وتِمامٌ، إذا تَمَّ ليلةَ البدر. وليلُ التّمام، هو أطولُ ليلةٍ في السّنة[2]. وتمّم الأمرَ: أتمّهُ وأكملهُ. وتمامُ الشّيء انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيءٍ خارجٍ عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصّف: 8]، وقولُه: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: 142][3]، فـ (تَمَّتْ) في هذا الموضع بمعنى كمالِها وانتهائِها إلى حدٍّ لا تحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عَنْها، واستمرَّت وصحَّت في الأزلِ صدقًا وعدلًا؛ وليس بتمامٍ مِن نقصٍ[4].

2) ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: قال قَتادةُ: هي القرآنُ، لا مبدِّلَ له، لا يزيدُ فيه المفترون ولا ينقصون. قال الطّبريّ: "سمّاه (كلمة)، كما تقول

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/238.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (تمم).
(3) الرّاغب، المفردات: (تمم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/337.

العربُ للقصيدة منَ الشّعر يقولُها الشّاعر: (هذه كلمةُ فلان). وقال ابنُ عبّاس: مواعيدُ ربِّكَ، فلا مُغيِّرَ لها. وكلماتُ اللّه: ترجعُ إلى العباراتِ أو إلى المتعلَّقاتِ منَ الوعدِ والوعيدِ وغيرِهما"[1].

3) ﴿مُبَدِّلَ﴾: جذرُ الكلمة هو (بدل)؛ بدَّلَ يعني نَسَخَ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النّحل: 101]؛ أي: نسخْنا، وقولُه تعالى: ﴿أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]؛ أي: انسخْه[2]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية؛ إذ لا أحدَ له أن يُغيّرَ أو ينسخَ أو يمحوَ شيئًا من كلماتِ القرآنِ الكريم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ الكريمُ تامُّ الدّلالةِ والحُجّةِ، صادقُ الوعدِ والوعيدِ، عدْلُ الحكمِ والتّشريعِ

تُؤكِّدُ الآيةُ أنّ اللّهَ سبحانَه أعلَمَ رسُولَهُ ﷺ والمُؤمنين؛ بأنَّ هذا الكتابَ تامُّ الدّلالة، تامُّ الحُجّة، على كُلِّ فئةٍ مِنَ المُؤمنين أو الكافرين، صادقُ الوعد والوعيد، عدلٌ في أحكامِه وتشريعاتِه؛ إذ إنّ القرآنَ بلغَ أقصَى ما تبلغُهُ الكُتُب في وُضُوح الدّلالةِ، وبلاغة العبارةِ، وإشاراتِ العلم، ودلالات الغيبِ، وهو الصّادقُ فلا يُعثَرُ في أخباره على ما يُخالفُ الواقعَ، وهو العادلُ فلا يُعثَرُ في أحكامه على ما يُخالفُ الحقَّ؛ فذلك ضربٌ منَ التَّحدّي والاحتجاجِ على أحقّيّة القرآنِ[3]، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يبدِّلَ كلماتِه الكاملةَ، حيث حفظَها مُنزِلُها وأحكمَها بأعلى أنواع الصّدقِ، وبغاية الحقِّ، فلا يمكن تغييرُها، ولا يمكن اقْتِراحُ أَحْسَنَ منها[4]، واللّهُ هو السَّميعُ بكُلّ ما خفي، ممّا أوحاهُ الشّياطينُ إلى أوليائِهم، العَليمُ بهم وبأقوالِهم وأفعالِهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/507، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/71.
(2) الدّمغانيّ، قاموس القرآن، ص: 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/20.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 270.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّهَ تعالى ناصرٌ رسولَه ﷺ، وأنّ مآلَ عاقبةِ الأمرِ به الصِّدقُ والعَدلُ؛ يعني: أنّها كانَت صِدقًا فيما وعده اللّهُ منَ النّصرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ﴾:

الإخبـارُ بتمام الكلـمةِ إقـامةٌ للحجَّةِ وتثبيتٌ للبرهان

قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ معطوفٌ على جملة: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾، باعتبار ما في تلك الجُملة من قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾، فلمّا وُصِفَ الكتابُ بأنّه مُنزَلٌ منَ اللّه، ثمّ بشهادة عُلماءِ أهلِ الكتاب، بأنَّهُ من عند اللّه، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[1]، جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾؛ أي: تَمّ كُلُّ ما أخبر به، ﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾، على اعتبار أنّهُ لا أحَدَ يُبدِّلُ شيئًا من ذلك، ممّا هُو أصدقُ وأعدلُ[2].

سرُّ استعمالِ ﴿وَتَمَّتۡ﴾ دونَ (كملتْ):

كـمـالُ كـلـمةِ الله وصفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ، وتمامُها تـواصـلُ نزولِها دونَ انقطاعٍ

(تَمَّ) الشّيء يتمُّ تمامًا، وتمّمه اللّهُ تَتميمًا وتَتِمَّةً. وتَتِمَّةُ كلِّ شيءٍ ما يكون تمامًا لغايته كقولك: هذه الدّراهِمُ تمامُ هذه المئة، وتَتِمَّةُ هذه المئة[3]. ومعنى تمامِ كلمةِ اللّهِ؛ أي: أنَّها بقيت متّصلةَ النّزولِ حتّى تمّت كمالًا للنّاس، فهي كاملةٌ أزلًا، فاستمرَّتْ، وصحّتْ في الأزل، صِدقًا وعَدلًا، وليس بتمامٍ من نَقصٍ[4]، فالنّاسُ لا يعلمون كمالَ كلمةِ اللّه إلّا بما بلَغَهم منَ الوحي على مدى الزّمان، فبقيت الكلمةُ تتواصلُ نزولًا، حتّى تمّت دون أن يكونَ هناك انقطاعٌ حقيقيٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/18.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/57.
(3) الخليل، العين: (تمم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/337.

كاملٌ، فالرّسولُ جاءَ مُتمِّمًا للرّسالات السّماويّةِ الّتي قبلَه؛ فلم يجعلْه اللّهُ في عُزلةٍ عنها، فجميعُ الرّسالات مصدرُها واحدٌ هو الله تعالى، والإيمانُ بأصول تلك الكُتُب ركنٌ من أركان الدّين؛ ولو قال: (كمالًا) لجعله مُستقلًّا مُنفصِلًا عمّا جاء في الرّسالاتِ السّابقةِ.

معنى ﴿وَتَمَّتْ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

تمامُ الشّيءِ يدلُّ على وفْرةِ أجزائِه أو تحقّقِه

وقد يتردّدُ معنى ﴿وَتَمَّتْ﴾ في أذهاننا بين الحقيقةِ والمجازِ؛ إمَّا بمعنى بُلوغِ الشّيءِ إلى أحسنِ ما يبلُغُه ممّا يُرادُ منهُ، فإنّ التّمامَ حقيقَتُه كونُ الشّيءِ وَافِرًا أَجْزَاءَهُ، والنّقصانُ كونُه فاقدًا بعضَ أجزائِه، فيُستَعارُ لوفرة الصّفاتِ الّتي تُرادُ من نوعِه، وإمّا بمعنى التّحقُّقِ، فقد يُطلَقُ التّمامُ على حصولِ المُنتظَرِ وتحقُّقِه، ويُقال: أتمّ وعدَهُ؛ أي: حقّقَهُ، وقولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: 137]؛ أي: ظهرَ وعدُهُ لهُم[1].

نُكتةُ إفراد الكلمة:

كلماتُ الله على كثرتِها لا تناقضَ بينها كالكلمةِ الواحدةِ

قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ جاء إفرادُ لفظِ (كَلِمَة) لتُفضِي إلى معانٍ مُفيدةٍ:

الأوّلُ: أنّها كلماتُ ربِّك؛ فكلُّها تنتظمُ في كلمةٍ واحدةٍ، أو منظومةٍ واحدةٍ، جمالًا وحُسنًا، وبلاغةً وإتقانًا ونظمًا، مهما تشعّبَت موضوعاتُها ومقاصدُها.

الثّاني: تُفيدُ انتفاءَ التّناقُض، فلا يُمكن أن تجدَ تناقُضًا في كتاب اللّه، ولا في كلماتِه، ولا حُكمِه، ومبالغةً في ذلك جعلَها كالكلمةِ الواحدةِ.

الثّالثُ: أنّ الأمرَ للّه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82]، فيُنتَظَمُ قَضاؤُه وتقديرُه وحُكمُه في كلمةٍ واحدةٍ، وذلك لبيان عظيمِ شأنِه سبحانَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/18.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿كَلِمَتُ﴾:

الإبـمـاءُ إلى وحـدةِ الرِّسالةِ والمصدرِ والغايةِ

اختلفَ القرَّاءُ في قراءة قولِه تعالى: ﴿كَلِمَتُ﴾ بين الإفرادِ والجمعِ، فقرأ الكوفيّون ويعقوبُ ﴿كَلِمَتُ﴾ على الإفراد، وقرأ الباقون ﴿كَلِمَٰتُ﴾ على الجمع[1]، وتوجيهُ ذلك، أنَّ العربَ تطلقُ الكلمةَ على الجملةِ والعبارةِ والطّائفةِ منَ الكلام في معنى واحدٍ، وتُسمّي العربُ القصيدةَ كلمةً، وتُسمّي (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كلمةَ التّوحيد، ولذلك قال جمهورُ المُفسّرين: إنَّ المُرادَ بالكلمة هُنا القرآن، ومعناها: وتمَّتْ كلمةُ ربِّك، فيما وعدَك مِن نصرٍ، وما أوعدَ به مِن خِذلانٍ وهلاكٍ لِمُعانديك[2]، ونكتةُ الإفراد بيانُ وحدةِ الرِّسالةِ والمصدرِ والغايةِ والمآلِ.

القـرآنُ الكريمُ كتابٌ مُكوَّنٌ من كلماتٍ، أعجز الإنسَ والجنَّ أنْ يأتُوا بمثلِه

وتوجيهُ الجمعِ أنّهُ لمّا تقدّمَ من أوّلِ السُّورةِ إلى هذه الآية، من دلائل التّوحيدِ، والنُّبوّةِ، والبعثِ، والطّعنِ على مُخالفي ذلك، وكان من هنا إلى آخر السّورةِ أحكامٌ وقَصَصٌ، ناسبَ ذكرُ هذه الآيةِ هُنا؛ أي: تمَّتْ أقضيتُهُ وأقدارُهُ، قالَهُ ابنُ عبّاس، وقال قَتادَةُ: كلماتُهُ هو القرآنُ[3]، وهُو الأصحُّ بقرينة ذكرِ (الكلمات)، فهو كتابٌ مُكوَّنٌ من (كلمات)، أعجزَ الإنسَ والجنَّ أنْ يأتُوا بمثلِه، وذلك جوهرُ الإعجازِ القرآنيِّ المُتفرّدِ.

وعلى قراءة الإفرادِ يكونُ بين ﴿كَلِمَتُ﴾ الأولى، و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الثّانية، الْتفاتٌ عدديٌّ، مُفادُه أنّ ﴿كَلِمَتُ﴾ هي أُنموذجٌ مُتفرِّدٌ ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ ﷻ الّتي لا تنتهي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 27]، أمّا على قراءة جمع ﴿كَلِمَٰتُ﴾ فيكونُ فيها تكرارٌ لـ (كَلِمَات)، فتكونُ الثّانيةُ توكيدًا للأولى، إذْ يصحُّ المعنى بعدم ذكرِ ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الثّانية، فلم يأتِ القولُ بهذا السّياق: (وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/130.
(2) رضا، المنار: 8/11.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/213.

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لَهَا)، ولكنّه ذكرَ الثّانيةَ تأكيدًا لتمامِها وصدْقِها وعدلِها، وليأتي الكلامُ على القراءتين.

نُكتةُ إيثارِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ وإضافتِه إلى ضمير الخطابِ:

تشريفُ النّبيِّ ﷺ وتعظيمُ مقامِه

كاف الضمير في قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ خطابٌ للنّبيِّ ﷺ وتشريفٌ له؛ لأنّها كلماتُ ربِّه الّتي أوحاها إليه، فتمَّ التّشريفُ من جانبين، **الأوّلُ**: الخطابُ بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، **والثّاني**: أنّه المُختصُّ بكلماته، وحيًا تلقّاهُ عن جبريلَ عليه السلام.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾:

اجتماعُ الصِّدقِ والعدلِ يشتملُ على بقيّةِ الصِّفاتِ التزامًا

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أي: تَمّ كُلُّ ما أخبرَ به، أو جاءَ في كلمات اللّه تعالى، فهي جميعُها تمَّت ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صِدْقاً في مصدرها وأخبارها، وعَدْلاً في تشريعها وحُكمِها، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، على اعتبار أنّهُ لا أحَدَ يُبدّلُ شيئًا من ذلك، ممّا هُو الأصدقُ والأعدلُ، وخصَّ بالذِّكرِ الصِّدقَ والعدلَ دون بقيَّة الصِّفاتِ لاشتمالِها بالاجتماعِ على بقيَّة الصِّفاتِ، فإنَّ الشَّيءَ إذا وُصِفَ بالصِّدقِ والعدلِ فهو حقٌّ، ومستقيمٌ، ومُنجٍ، ولَما فيها في الصِّدقِ من مُطابَقةِ الأخبارِ للواقعِ، والعدلِ للأحكامِ في الواقعِ.

مراعاةُ النّظيرِ بين لفظَيْ ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾:

تناسبُ لفظتَا الصّدقِ والعدلِ؛ صِدْقًا فيما وعدَ، وعدلًا فيما حكمَ

يُطلَقُ الصّدقُ مجازًا على أنّ الشّيءَ يكونُ كاملًا في خصائص نوعِه[1]، وذِكرُ العَدلِ بعدَ الصّدقِ، من قَبيل ما يُعرَفُ بـ (التّناسب أو مُراعاة النّظير)[2]؛ وهُما لفظان منصُوبان على الحال، إمّا من لفظ ﴿رَبِّكَ﴾، أو من لفظ ﴿كَلِمَتُ﴾ على الإسنادِ المجازيِّ، صدقًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/20.

(2) قال الحمويّ: "مُراعاة النّظير، يُسمّى التّناسب، والائتلاف، والتّوفيق، والمُؤاخاة، وهو في الاصطلاح أن يجمعَ النّاظمُ أو النّاثرُ أمرًا وما يُناسبُه، مع إلغاء ذكر التّضادّ، ولتخرج المطابقة، وسواء كانتِ المناسبةُ لفظًا لمعنى أو لفظًا للفظ أو معنى لمعنى، إذ القصدُ جمعُ شيءٍ إلى ما يناسبُه من نوعٍ أو ما يلائمُه من أحد الوجوه ". ينظر: ابنُ حَجَّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/293.

في الوعد، وعدلًا في الوعيد، وقال قَتادةُ ومُقاتلٌ: صدْقًا فيما وعدَ، وعدْلًا فيما حكمَ[1].

نُكتةُ تقديمِ الصِّدقِ على العَدلِ:

الإقناعُ مقدَّمٌ على العملِ، فمَنْ ثبتَ صدقُه قُبلَت عدالتُه

في قولِه تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فُسِّرَ الصِّدقُ والعدلُ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أوضحِها دلالةً؛ أنّهما فيما تضمّنَ القرآنُ من خبرٍ وحُكْمٍ[2]، وتقديمُ الصِّدقِ على العدلِ باعتبارِ الإقناعِ قبل العملِ، والإثباتِ قبل المطالبةِ، والبرهانِ قبل الحُكمِ؛ فإنَّ إثباتَ صدقِ القرآنِ مُقدَّمٌ على مطالبةِ النَّاسِ بتطبيقِ أحكامِه، فلمَّا أقامَ عليهم الحجَّةَ في صدقِه، وأنَّه من عند اللّه، أثبتَ عدالتَه في أحكامه العقديّةِ والتّشريعيّةِ والسُّلوكيّةِ.

وبحسبِ هذه المعاني، تكونُ لفظتا ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قد تضمّنَتَا طِباقًا ضِمنيًّا، يُحقّقُ دلالةَ الشُّمولِ، فتكونُ العبارةُ منَ الإيجاز بمكانٍ، ويكونُ المعنى شاملًا لكلّ ما يُمكنُ أن يخطُرَ ببالِ النّاس، من قَبيلِ ما يَرِدُ في مثل هذه الثُّنائيات المعنويّةِ، فضلًا عن شُمُوله القرآنَ كُلَّه، فيكونُ في معنى ذلك تمامُ كلماتِ ربِّك.

لفٌّ تقديريٌّ، اضطلعَ بنشرِه الزّمخشريُّ

قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هُو لفٌّ تقديريٌّ، اضطلعَ بنشره الزّمخشريُّ بقوله: "تَمَّ كُلُّ مَا أخبرَ به، وأَمَرَ ونَهَى، ووَعَد وأَوعَد"، قال الطّيبيّ: "فإنَّ الصّدقَ مُناسِبٌ للخبرِ والوعدِ والوعيدِ، وإنّ العدلَ مُوافِقٌ للأمر والنَّهي؛ لأنّهُ تعالى يأمُرُ وينهَى بمُقتضى حِكمتِه، ويضعُ كُلًّا في مَوضعه، ويتصرّفُ في مُلكه بالأمر والنّهي على ما أراد"[3].

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/314.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/628.
(3) الطّيبيّ، فُتُوح الغيب: 2/314.

المجازُ في معنى التّبديلِ:

التّبديلُ جعلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ

والتّبديلُ على الحقيقة جعلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ آخرَ، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: 16]. ويُستعمَلُ مجازًا في إبطالِ الشّيءِ ونقْضِه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 15]؛ أي: يُخالفُوه وينقضُوا ما اقتضاهُ، وذلك أنّ النّقضَ يستلزمُ الإتيانَ بشيءٍ ضدَّ الشّيءِ المنقُوضِ، فكان ذلك اللُّزومُ هُو عَلاقَةَ المجازِ، وقد استُعمِلَ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ مجازًا في معنى المُعارضة أو النّقضِ، على الاحتمالَيْن في معنى التّمامِ من قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومعلومٌ أنَّ نفيَ المُبَدِّلِ كنايةٌ عن نفْيِ التَّبديل[1].

اجتماعُ الحقيقةِ والمجازِ والكنايةِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ﴾:

النّهيُ عنِ التّبديلِ هو كالنّهيِ عن مُخالفتِه وتكذيبِه

معنى قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ انتفاءُ الإتيانِ بما ينقُضُه أو يُبطلُه أو يُعارضُه، بأن يُثبتَ نقصًا أو خطأً ما فيه، فإن جاء أحدٌ بما ينقضُه كذبًا وزورًا، فليس ذلك بنقضٍ، فيكونُ التّبديلُ في هذا المعنى كنايةً عنِ النّهي عن مُخالفته؛ ومحاولةُ مُخالفتِه هي كذبٌ وزُورٌ، وليس ذلك بنقضٍ، وإنّما هُو مُكابرةٌ على إعجازه في نظمه ومعانيه، بمُحاولة إبطالِ معانيه وحقائقِه، وانتفاءِ تغييرِ ما شرّع اللّهُ وحَكَمَ به، وهُو انتفاءٌ عن أن يُخالفَه المُسلمُون، وبذلك يكونُ التّبديلُ مُستعمَلًا في حقيقتِه ومجازِه وكنايتِه[2].

علّةُ فصلِ جُملةِ: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

الجملةُ توكيدٌ للسّابقة وبيانٌ لها

فَصَلَ قولَه: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ عن جملةِ ﴿وَتَمَّتْ﴾؛ لأنَّها توكيدٌ للمعنى السَّابقِ ومبيِّنٌ له، فسببُ عدمِ التَّبديلِ هو صدقُ كلمةِ اللّه وعدالتُها، فإذا اجتمعَ في الشَّيءِ الواحدِ الصِّدقُ والعدلُ فأنَّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.

له أن يُبدَّلَ؟ والتّمامُ يعني عدَمَ التّبديلِ، وفي ذلك ما فيه من تناسُبِ المعنى، في صحّته واستمرارِه وتوكيدِه، فتكونُ جملةُ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ إطنابًا توسَّعَ فيها المعنى لفائدةِ أن لا يأتي بعد التّمامِ تبديلٌ، فهو من قبيل كمالِ الاتّصالِ.

توجيهُ الإعجازِ الغيبيِّ في قوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

ضمِنَ اللهُ تعالى الحفظَ لكتابِه من كلِّ تغييرٍ أو تبديلٍ أو نقصٍ أو زيادةٍ

قولُه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هو من قَبيل إعجاز غيْبِ المستقبلِ؛ فآياتُ اللّه محفوظةٌ بضمانِ اللّه وحفْظِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]، فقد ضمِنَ اللّهُ تعالى الحفظَ لهذا الكتاب؛ وفي ذلك تحدٍّ عظيم لأولئك المعارِضين الّذين تظهرُ أشرارُهم من هنا وهناك يريدون إحداثَ التّبديلِ في كتاب اللّه تعالى، ثمّ ينتكسون وتذهبُ أفعالُهم هباءً، فلم يستطعْ أحدٌ منذ نزولِ القرآنِ أن يُبدّلَ القرآنَ ويُغيّرَه؛ إذ إنّ هذا القرآنَ لكتابٌ عزيزٌ بإعزازِ اللّه إيّاه وحفظِه له من كلِّ تغييرٍ أو تبديلٍ، لا يأتيه الباطلُ من أيّ ناحيةٍ من نواحِيه، ولا يبطلُه شيءٌ، فهو محفوظٌ من أن يُنقصَ منه، أو يُزادَ فيه.

المجازُ العقليُّ في ﴿كَلِمَتُ﴾ و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

اتّفاقُ جمهورِ المفسّرين أنّ معنى (كلمة) أو (كلمات) إنّما هو القرآنُ الكريمُ

على معنى أنّ الكلمةَ والكلماتِ هي القرآنُ الكريمُ، وهو قولُ جُمهورِ المُفسّرين، وذلك مِصداقًا لقولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: لا مُبدِّلَ لكلمات القرآن، فلا يلحقُها تغييرٌ، لا في المعنى ولا في المبنى[1]، وفي كلتا الحالتين، إنْ كان المرادُ بـ ﴿كَلِمَتُ﴾ و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ القرآنَ الكريمَ، فهُو مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ الجزئيّةُ، إذْ أطلقَ الجُزءَ وأرادَ الكُلَّ، فذكرَ الكلمةَ أو الكلماتِ وأرادَ الكتابَ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/213.
(2) سلامة، الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم، ص: 94.

دلالةُ إضافةِ (كلمات) إلى الضَّميرِ:

دلالةُ إضافةِ الكلماتِ إلى الضَّميرِ المتّصلِ العائدِ إلى ﴿رَبِّكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أفادَ التّعريفَ بالكلمات؛ أي: أنّها كلماتُ اللّه تعالى؛ فاستحقَّتْ أن تتّصفَ بالتّمام صدْقًا وعدْلًا، فلا مُبدِّلَ لها، وفيها تكريمُ هذه الكلمات الّتي مصدرُها من عند اللّه تعالى، وفي الإضافة معنى الصّدقِ والعدلِ؛ فكلماتُ اللّه صادقةٌ في ذاتِها، عادلةٌ في أحكامِها، ومن هنا دلَّتِ الإضافةُ على معنى التَّوكيدِ لقولِه تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

تكريمُ الكلماتِ باعتبارِ مصدرِها وتوكيدِها للمعاني السَّابقةِ

المجازُ المُرسَلُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

يجوزُ أن تكونَ جُملةُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ عطفًا على جُملةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: 112]، وما بينهُما يكُون اعتراضًا، فالكلماتُ مُرادٌ بها ما سنّهُ اللّه وقدَّرَهُ: مِنْ جَعلِ أعداءٍ لكُلِّ نبيٍّ، يُزخرفُون القولَ في التّضليل؛ لتصغَى إليهم قلوبُ الّذين لا يُؤمنُون بالآخرة، ويتبعُوهم، ويقترفُوا السّيّئات، ولكُلٍّ منَ العطفِ والاعتراضِ أثرٌ في البيان، وأنّ المُرادَ بالتّمام التّحقُّقُ، ويكونُ قولُه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ نفيَ أنْ يقدرَ أحَدٌ أنْ يُغيّرَ سُنّةَ اللّه، وما قضاهُ وقدّرَهُ، ففي ذلك كلِّه تأنيسٌ مكينٌ للرّسول الكريم ﷺ، وتطمينٌ له وللمُؤمنين، بحُلول النّصرِ الموعُودِ به في إبَّانِه[1]، وفي هذا التّركيب مجازٌ مُرسَلٌ، وعلاقتُه الجُزئيّةُ[2].

من معاني (الكلمات) أقدارُ اللّه؛ فهي بمثابة السُّنن الكونيّةِ في الخلق وفي الحياة

الاختصاصُ والمُبالغةُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اختصاصٌ بالضّمير (هُوَ)، بأنّه سبحانَهُ السّميعُ البصيرُ، ولا أحدَ غيرُه، و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ تُفيدُ أنّهُ لا أحدَ سِوَاهُ بالغٌ السّمعَ لجميعِ ما خلقَ منَ الأصواتِ، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ تُفيد

لا أحدَ سوى اللهِ بالغٌ السّمعَ وبالغٌ العلمَ بجميعِ ما خلَقَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/22.

(2) مخيمر، معجم الأساليب البلاغيّة، ص: 272.

أن لا أحدَ سِوَاهُ بالغٌ العلمَ بجميع ما خلق سبحانَه، فهو كاملُ القدرة، نافذُ الأمر، فلا أحدَ يَملكُ تغييرًا أو تبديلًا إلّا هُو سُبحانه[1]، ولفظَا ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ صيغتَا مُبالغةٍ، إذْ سَمعُه فوقَ المخلُوقات، وعلمُه لا يُقارَنُ بغيره، فهو المحيطُ بكُلّ شيءٍ علمًا[2].

بلاغةُ جُملةِ التّذييل: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

اللـه تعـالى مُـطّـلِـعٌ على الأقـوال، عليمٌ بالضّمائر، وهذا تعريضٌ بالوَعيدِ وإلماحٌ للوعدِ

جُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييلٌ لجُملة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾؛ أي: وهُو المُطّلِعُ على الأقوال، العليمُ بما في الضّمائر، وهذا تعريضٌ بالوَعيدِ لمَنْ يسعى لتبديل كلماتِه، فالسّميعُ لأصوات المخلوقات، الّتي منها ما تُوحي به شياطينُ الإنسِ والجنِّ بعضُهم إلى بعض، لا يفُوته منها شيءٌ؛ وهُو العالمُ سبحانَه بمَن يُريدون أن يبدّلُوا كلماتِ اللّه، على المعاني المُتقدِّمَةِ، فلا يخفى عليه ما يخُوضُون فيه من تبْييتِ الكيدِ والإبطالِ له[3]، وهذه الجملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييلٌ للسّياق كلِّه، لا لهذه الآيةِ وحدَها، وهو سياقُ مُحاجَّةِ المشركينَ المُعَانِدين، وفيهِ ذكرُ اقتراحِهم الآياتِ، وأيمانِهم الكاذبةِ، وما يدخلُ في هذا البابِ[4].

وهُو أيضًا ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الّذي أحاطَ علمُه بالظّواهر والبواطن، والماضي والمستقبل، العليمُ بما أودعَ من أسرار خلقِه، وقوانينِ حركتِهَا في الكَونِ والحياة، مُمتدّةً من دقائقِها وذَرّاتِها، إلى أجرَامِها ومجَرّاتِها، وأنّ سمعَه وعلمَه سُبحانَه، قد أحاطَ بها كُلِّها، فيظهرُ معها هَوانُ البشرِ، وضعفُ قُدُراتِهم، وما يظنُّون أنّهُم سيُخفُونه، ممّا تُوحيه الشّياطينُ من زُخرفِ القولِ بعضُهم إلى بعض، منَ التّشكيك والتّكذيبِ لرسالات الأنبياءِ، ثمّ ما يقترفُونه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/700.
(2) مخيمر، معجم الأساليب البلاغيّة، ص: 130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/22.
(4) رضا، المنار: 8/13.

منَ العداوة لأولياء اللّه، فذكرُ هاتين الصّفتين هُنا، بمثابة وعيدٍ لمَن شملته آياتُ الذَّمِّ السّابقةُ، ووعدٌ لمَن أُمرَ بالإعراض عنهم، وعنِ افترائِهم، فيكونُ بينهُما طباقٌ ضمنيٌّ، ينشأُ عنهُ شُمُولُ الخطابِ للنّاس جميعًا، كلٌّ يأخذُ قسمتَه منَ الوعد والوعيدِ بحسبِ أعمالِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الكمال) و(التَّمام):

الكمالُ: حصولُ ما به الغرضُ، والتَّمامُ: انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاجُ إلى خارجٍ عنه

كمالُ الشَّيء حصولُ ما فيه الغرضُ منه، فإذا قيل: كَمُلَ، ذلك معناه: حصلَ ما هو الغرضُ منه، وقولُه: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: 233]؛ ليعلِّمَنا أنّ مرورَ الحولين الكاملين يعني انتهاءَ مدّةِ الرّضاعِ، فقال: ﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233]؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك غايةُ ما يتعلَّقُ به صلاحُ الولدِ، وقولُه: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]، فإنَّما ذكر العشرةَ، ووصفَها بالكاملة، لا ليُعلّمنا أنَّ السَّبعةَ والثَّلاثةَ عشرةَ، بل ليُبيِّنَ أنَّ بحصول صيامِ العشرةِ يحصل كمالُ الصَّوم القائم مقامَ الهديِ[1]، أمَّا تَمَامُ الشَّيء فهو انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، والنَّاقصُ: ما يحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[2]، فيعلمُ ممَّا سبقَ أنَّ كمالَ الشَّيءِ حصولُ ما فيه الغرضُ الآنيُّ المحدَّدُ بمسألةٍ، أمَّا التَّمامُ فهو الحدُّ المُنتهَى منَ الكمال، فهو ما يحصلُ فيه الغرضُ في كلِّ وقتٍ وحالٍ، فكان تمامُ الشَّيءِ أبلغَ وأعمَّ من كماله، وناسبَ ورودُ اللّفظةِ في الآية بـ ﴿وَتَمَّتۡ﴾؛ لبيان هذا المعنى وتجليتِه، ويؤيِّدُ ذلك ما جاء من قولِه: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: 154]؛ ليدلَّ على تمام الكمالِ في كلِّ حالٍ.

(1) الراغب، المفردات: (كمل).
(2) الراغب، المفردات: (تمم).

التّبديل والإبدال والتّغيير والتّحويل:

التّبديلُ تغييرٌ من حـالٍ إلى حالٍ آخرَ

الفرقُ بَين التّبديلِ والإبدالِ؛ قَالَ الفراءُ: التّبديلُ تَغييرُ الشَّيءِ عَن حَاله، والإبدالُ جعلُ الشَّيء مَكَانَ الشَّيء. وقيل: هما بمعنى التّبديل: تغييرُ حالٍ إلى حالٍ آخرَ؛ يُقال: بدَّلَ صورتَه. والإبدالُ: رفعُ الشَّيءِ بأن يجعلَ غيرَه مكانَه[1]، قال تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15].

التّحويلُ: هو أن يجعلَ مكانَ الشّيءِ شيئًا آخرَ

والتّحويلُ: هو أن يجعلَ مكانَ الشّيءِ شيئًا آخرَ، أو تُحوّلَ صفتُه إلى صفةٍ أخرى، ومن هنا يتبيّنُ أنّ هذه الألفاظَ متقاربةٌ في المعنى، إلّا أنَّ التَّحويلَ لا يُستعمَلُ في تبديل ذاتٍ بذاتٍ أخرى[2]، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: 56].

التّغييرُ يحتملُ معنى التّبديلِ والتّحويلِ

والتّغييرُ على وجهين: **أحدُهما**: لتغيير صورةِ الشّيءِ دونَ ذاتِه. يُقال: غَيَّرتُ داري: إذا بنيتُها بناءً غيرَ الّذي كان. **والثّاني**: لتبديله بغيره، نحو: غَيَّرتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتُهما بغيرهما. نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11]، فالتّغييرُ بذلك يحتملُ معنى التّبديل والتّحويل بحسب ما يقتضيه السّياقُ.

والفرقُ بين غيرَيْن ومختلفَيْن أنّ الغيرَيْن أعمُّ؛ فإنّ الغيرَيْن قد يكونان متّفقَيْن في الجواهر بخلاف المختلفَيْن، فالجوهران المتحيِّزان هما غيران وليسا مختلفَيْن، فكلُّ خلافَيْن غيران، وليس كلُّ غيرَيْن خلافَيْن[3].

فكان استعمالُ لفظِ التّبديلِ في الآية الكريمةِ في غاية الفصاحةِ والبيانِ؛ لكونه يتضمَّنُ نفيَ حصولِه في ذات الكلماتِ، وفي صفاتِها، وفي انتفاءِ الإتيانِ بما ينقضُها أو يُبطلُها أو يُعارضُها سواءً في لفظِها وسبْكِها، أو في حقيقتِها ومعانيها.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ: أساس البلاغة: (حول)، وابن قدامة، المغني: 5/606.
(3) الراغب المفردات: (غير).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»